[٣٣٢ – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: (لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدًا)].

ذكر الإمام الحافظ – رحمه الله – هذا الحديث الشريف الذي اشتمل على توجيه من رسول الله ﷺ لأمته في أدب من الآداب المتعلقة بالجماع، بين فيه النبي ﷺ هذا الأمر وهذه السنة النبوية التي من حافظ عليها فقد حفظ حق ولده من بعده. حيث أرشد رسول الله ﷺ إلى ذكر اسم الله ﷻ عند إرادة الجماع، وهذا الهدي من رسول الله ﷺ يعتبره بعض العلماء – رحمهم الله – من الإحسان للولد، ذلك أن الوالدين يحسنان إلى الولد قبل وجوده، وذلك حينما يختار الأب زوجة صالحة، وأمًّا تخاف الله وتتقيه، فيكون قد أحسن إلى ولده أيما إحسان! ثم بعد ذلك إذا قدر له أن ينكح هذه المرأة ويتزوجها: فإنه يحرص على اتباع سنة النبي ﷺ في إتيانه لأهله، فإذا حرص على ذلك، وذكر هذا الهدي من رسول الله ﷺ الذي أخبر رسول الهدى ﷺ أنه حرز من الله، وحصن حصين من ملك الملوك ﷻ لمن ذكر اسمه عند إرادة الجماع للولد والذرية.

فأرشد ﷺ إلى هذا الخير العظيم، وكان – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – لا يترك باب خير إلا دلنا عليه، ولا سبيل رشد إلا هدانا إليه. صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وجزاه عنا وعن أمته خير ما جزى نبيًّا عن نبوته، وصاحب رسالة عن رسالته.

يقول ﷺ: **[(لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله)]** هذه السنة – وهي ذكر اسم الله ﷻ تكون قبل الابتداء بالجماع، وذلك لأن حال الجماع حال لا يناسب الذكر، ومن هنا: يقدم ذكر الله ﷻ قبل إصابة المرأة.

وقوله: [(**بسم الله**)] هذا الاسم العظيم الذي شهد الله ﷻ أنه عظيم البركة: ما كان في قليل إلا كثره، ولا يسير إلا باركه ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ فهو الاسم العظيم الذي قامت عليه السماوات والأرض! "بسم الله" التي ينخنس عندها عدو الله. "بسم الله" التي تطيب به الأشياء وتحل به البركة.

قال ﷺ: [(**فقال: بسم الله**)] وهذا القول من ذكر الله ﷻ إنما يكون بليغًا، عظيم الأثر، عظيم النفع، عظيم العاقبة: إذا كان الإنسان يذكره مستحضر القلب، قوي الإيمان بالرب، متعلقًا به ﷻ. حتى عند شهوته! إذا بالإسلام يهذبه ويقومه، ويسدده ويرشده إلى ما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته. إنه الإسلام الذي يعيش مع المسلم حتى في فراشه وإتيانه لأهله ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فما بقي أمر من أمور المسلم إلا وله باب من أبواب العبادة، وباب من أبواب القربة لله ﷻ. يأتي الغافل شهوته، ويقضي وطره، وينتهي من نزوته. ولكن المؤمن الكامل في إيمانه لا يمكن أن يرى شهوة من الشهوات يستطيع أن يدخر منها حسنة للآخرة إلا جعلها نصب عينيه، وحرص كل الحرص أن يفعل شيئًا يقدمه للآخرة، حتى الشهوات! لو أن الإنسان قصد بإتيانه لامرأته أن يعف نفسه، وأن يعف زوجه، وأن تكون له ذرية صالحة: فإنه يؤجر على ذلك. وكم من رجل دخل على زوجته وفي نيته وقرارة قلبه منذ أن عقد عليها: أنه يريد أن يبني بيتًا مسلمًا، ويريد أن يعف نفسه بحلال الله عن حرامه، ويريد أن يحصن أمة من إماء الله عن حرام الله! فنوى هذه النية الصالحة منذ أول لحظة من دخوله، وإذا به في أجر ومثوبة من الله حتى ينتهي زواجه، أو يلقى الله ميتًا بوفاته! هذا من عظمة الإسلام: أنه يعظم بالنية، ويعظم أمر العبد بشعوره أنه في عبادة مع الله ﷻ. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له بها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟).

فبين النبي ﷺ أمرًا غيبيًّا لا يمكن للعقول أن تدركه، ولا يمكن للناس أن يطلعوا عليه، وهو: ملابسة الشيطان للإنسان هذه الملابسة التي تكون حتى في حال الجماع! فأبى عدو الله – عليه لعائن الله – أن يترك ولي الله المؤمن دون أن يؤذيه في أي أمر من أموره، حتى في جماعه وإتيانه لأهله! يريد أن يتلبس فيخلط الطيب بالخبيث، ويؤذيه في ما يكون منه من ولد! وصدق الله حينما أخبر بعداوته، وأنه العدو المبين. فهنيئًا ثم هنيئًا لمن طيب الله ذريته، وهنيئًا ثم هنيئًا لمن طيب الله قوله فطابت به ذريته وطاب به عمله. وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: أن المؤمن إذا دخل بيته فقال: بسم الله. ثم إذا أراد أن يصيب طعامه قال: بسم الله. قال الشيطان لأعوانه: لا مبيت لكم ولا عشاء. فإذا دخل الرجل بيته ولم يذكر اسم الله، قال: أدركتم المبيت. فإذا أكل ولم يذكر اسم الله، قال: أدركتم العشاء. فإذا جامع أهله – والعياذ بالله – دون أن يذكر اسم الله كان الشيطان معه).

وهذا كله يدل على فضل الذكر، وقل أن تجد إنسانًا محافظًا على ذكر الله ينسى أن يذكر الله في هذا الحال، ولذلك من عود نفسه على أن يذكر الله قائمًا وقاعدًا، مقبلًا ومدبرًا، ذاهبًا وراجعًا، من عود نفسه أن يذكر الله على كل أحيانه: فإن الله يعصمه ويحفظه، ويبارك له في وقته وعمره، ومن هنا: بين النبي ﷺ أنه إذا قدّر الولد من هذا الجماع أنه لا يضره الشيطان. وفي هذا دليل على أن الذرية قد يضرها الشيطان، ولذلك للشيطان همز، وللشيطان مس، وللشيطان لمز، وكل ذلك نصت عليه نصوص الكتاب والسنة، والدليل فيه واضح من كتاب الله وسنة النبي ﷺ: أن الشيطان يتلبس بالإنسان، وأنه يأكل من طعامه، ويشرب من شرابه، وأنه يأتي معه أهله – والعياذ بالله –! وهذا كله بيان وإعذار، وقد أعذر من أنذر، فأنذرنا الله ﷻ بهذه النصوص في كتابه وسنة نبيه ﷺ حينما قال في كتابه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ فهذا يدل على عظيم الأذية والضرر من الشيطان، ومع هذا كله فكيده ضعيف – بإذن الله –، ولا يمكن أن يؤذي عبدًا إلا إذا

شاء الله ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ فإذا توكل العبد على ربه وأدمن ذكر الله ﷻ: عصم بعصمة الله، وحفظ بأمر الله، وحماه الله ووقاه.

بين النبي ﷺ أنه إذا ذكر هذا الذكر وقال: **[(بسم الله)]**: أنه لا يضر الشيطان الولد. واختلف العلماء – رحمهم الله – في ذلك، فقال بعض العلماء: إنه لا ينخسه. ذلك أن الشيطان يطعن في الولد في خاصرته، وأنه ما نجى من هذه الطعنة إلا عيسى بن مريم.

وقال بعض العلماء: إن هذا ضعيف؛ لأن النص عام، وتخصيص عموم حديثنا أولى من تخصيص النص العام في هذا؛ لأن النبي ﷺ خص عيسى بن مريم، فدل على أن غيره لا يأخذ حكمه.

وقال بعض العلماء: **[(لا يضره الشيطان)]** أي: أنه لا يصير مجنونًا، ويحفظ الولد من الجنون.

وقال بعضهم: **[(لا يضره الشيطان)]** أي: أنه لا يصيبه الجنون، ولا يصيبه الصرع والمس عمومًا، فيحفظ الولد من هذا.

وقال بعض العلماء: **[(لا يضره الشيطان)]** بأن لا يكون من أولياء الشيطان، فيحفظ – بإذن الله ﷻ – ويعصم في دينه، فيضعف سلطان الشيطان عليه، ولا يستطيع الشيطان أن يضره ويؤذيه كما يضر غيره ممن لم يذكر اسم الله عليه.

وظاهر الحديث: أنه لا يضره الشيطان. فالله أعلم بضرر الشيطان، والله أقدر على ضرر الشيطان وغير الشيطان، فلن يستطيع شيء أن يضر إلا بأمر الله ﷻ. وقد أخبرنا ﷺ أنه لا يضره الشيطان: فآمنا بالله كما أخبر رسول الله ﷺ، لا نشك في ذلك ولا نمتري. ويا لها من نعمة عظيمة ومنة كريمة: أن لا يضر الإنسان من عدوه – وهو إبليس عليه لعائن الله ﷻ –.

ولذلك قال بعض العلماء: إن هذا الحديث ظاهره العموم: أنه لا يضر من الشيطان. وضرر الشيطان فيه شيء في الدنيا، وفيه شيء في الدين. ففي الدنيا: يؤذي نفسية الإنسان، ويشوش عليه ويكثر تخليط الأمور عليه، فيجعله في ضرر في وسوسته وأذيته وإضراره. وهناك أمور تتعدى إلى الدين، وهي أعظم ما يكون من ضرر الشيطان، ولكن النص عام شامل لأذية الدين والدنيا، وحقيقة ذلك وبيان الأمر الذي يكون عليه الحديث لا يستطيع أحد أن يفصله على وجهه، بل نأخذ بظاهر حديث رسول الله ﷺ: أنه لا يضره الشيطان.

بقي إشكال عند بعض العلماء، قالوا: إننا نرى بعض الأخيار والصالحين يكون من ذريتهم المصروع والممسوس والمؤذى والمضر! وهذا لا يطعن في الحديث، ولذلك قال بعضهم: إنه لا يضره الشيطان، ليس معناه: أنه لا يصرعه، ولا يؤذيه، ولا يصيبه بمس. فرد هذا المعنى وخصص العموم بالحس، ولكن الواقع: أن نسأل، فكم من أمراض ظاهرها المس والواقع أنها أمراض تتعلق بالأعضاء، ويترتب عليها ضعف النفس وضرر في نفسية المصاب، وليس معناه: أنه ممسوس من الشيطان. وهذا الأمر هو الذي جعل قضية الإيمان بالمس عند بعض الأطباء وتصديقها مشكلة! والواقع: أن هناك أمراض عضوية قد تؤثر في النفسية، وأنت ترى بنفسك أنه لو حبس عنك طعامك وشرابك ساءت خلقك، وأنه لو جاءك أمر يضر بك في جسدك أصبحت تتألم وتتأوه فلا تدرك الأشياء، وليس عندك من القوة ما كان قبل أن يصيبك ذلك الألم. فالنفس تتألم ويحدث لها ضرر في النفسية تبعًا للأضرار العضوية، فكونها يحدث منها هذا الضرر، كون كل من أصيب بضرر في نفسه يقال: أن معه مس، أو معه جنون، أو أنه مريض عقلي، هذا أمر فيه مجازفة، وفيه غلو، وفيه خطأ كبير! خاصة من بعض الإخوة – أصلحهم الله – ممن يشتغلون بالقراءة والرقية، وإنك لتعجب من أمور من الغيب يخوضون فيها دون نص، ودون بيان، ودون تروٍّ، ودون ورع! فالرجل إذا رأى رجلًا يصيح قال: به عين! ولربما قال: عين جنية! وعين إنسية! وعين من فلان، وعين من علان! حتى إنه يدخل في تفاصيل أمور لا يمكن أن تعرف إلا بالغيب! فهذا أمر فيه توسع وفيه خروج عن

السنن، والذي نعرفه في السنة: أن القارئ يقرأ ويرقى بكتاب الله وسنة النبي ﷺ، ولا يقول إلا حقًّا، ولا يخوض في أمور الغيب ويدعي أمورًا لا يدركها عقله، وأمورًا لم يشهدها، ويشهد بشيء لا علم له به! والله يقول: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾. فاقرأ – رحمك الله – من كتاب الله، واذكر مما ثبت من سنة النبي ﷺ وهديه، وكف عن الأمور الغيبية، وكف عن الجزم بأنه مس أو سحر أو جنون حتى تستبين الأمور.

وأعجب من هذا: أنه لربما قرأ، فجاء نجي من الشيطان فتكلم، ولربما كانت المرأة متحسسة من قرابة لها فحكت أثناء كلامها أقوامًا من أعدائها أنهم آذوها، أو كان عندها تحسس أنها مسحورة من شخص فأخذت تهذي بما كانت تحسه في يقظتها، أو جاء الشيطان وتكلم على لسانها: أن عمها سحرها، أو ابن عمها، أو فلان، أو علان. فقام هذا الراقي وصدق ما يقال، ثم يأتي ويقول لأولياء المرأة: إنه سحرها فلان أو علان! والنبي ﷺ يقول لأبي هريرة – كما في الصحيحين –: (صدقك وهو كذوب) و"كذوب" صيغة فعول في لغة العرب تدل على أنه كثير الكذب، وإذا استرق الشياطين الكلمة من السماء فإنهم يكذبون معها مئة كذبة، فهم أهل الكذب لا يُصدّقون!

فالشاهد من هذا: أن الحديث دل على وجود المس، ودلت الأحاديث الصحيحة على المس، ودلت على تلبس الشيطان بالإنسان، والدلالة فيه واضحة من الكتاب والسنة. ولكن الأمر بين الإفراط والتفريط، فالأطباء لا يصدقون بالنصوص الشرعية "بعض الأطباء"، وليس عنده استعداد أن يتصور أن الإنسان يمس بالشيطان؛ لأنه عقلاني لا يؤمن إلا بالمحسوسات! وما بين رجل متهور قد حمل النصوص ما لا تتحمل، وأصبح يرمي برجم الغيب! ولربما دخل في أمور تضر بالناس وخرج بها عن السنن، فكلما جاءه مصاب ادعى أنه مسحور أو معيون! فأصبح الأمر بين الإفراط والتفريط. والعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض: أن نؤمن بالنصوص وبما جاءت به من دلالة على وجود المس وعلى ثبوته، وأن الإنسان يمس

كما ثبتت الأحاديث عن النبي ﷺ، وكما في قصة المرأة – كما في الصحيحين من حديث ابن عباس – التي كانت تصرع، وقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: (إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت ولك الجنة) فقالت: أصبر. فكانت مبشرة بالجنة إن صبرت وهي تمشي على وجه الأرض! فقالت: يا رسول الله، أصبر، ولكنه يدعوني أن أتكشف، فادع الله أن يحفظني. فعصمت بفضل من الله، ثم بدعاء النبي ﷺ لها. فأخبرت أنها تضر من الشيطان حتى في عريها وتكشفها، وأنه يتسلط حتى على أفعال نفسها، ومن الذي يستطيع أن يكذب هذا الحديث الصحيح؟! من الذي يستطيع أن يرد هذه النصوص الصحيحة؟! والله يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾ يقولون: ﴿ ٱلۡمَسِّ ﴾ الوسوسة. سبحان الله العظيم! يقول: ﴿ يَتَخَبَّطُهُ ﴾ إسناد فعل متعلق بالظاهر لا علاقة له بالباطن، ورد الظاهر إلى الباطن ﴿ كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ﴾ و ﴿ مِنَ ﴾ سببية، أي: بسبب المس. فرد الظاهر إلى الباطن، وأثبت تأثير الباطن في الظاهر، ورد ذلك إلى وصف ليس إلا من الشيطان ﴿ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾ قال: ﴿ كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ وأثبت التخبط إلى الشيطان، والتخبط إنما يكون في الظاهر، بالنسبة على ظاهر صدر الآية؛ لأن السياق والسباق محكم، فهو يقول: ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ فالأمر كله متعلق بأفعال، وليس بمتعلق بباطن إنما هو متعلق بظاهر ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾ فهذه نصوص واضحة جلية! والمسلم في غناء عما تنشره الفضائيات، وعما يرجف به من لا علم عنده، وقد أصبح اليوم يتكلم من عنده علم ومن لا علم عنده! وهذا من بلاء الله ﷻ. ومن علامات الساعة: قلة العلماء، وكثرة الجهلاء وكثرة الأدعياء للعلم، فالعلم يتكلم فيه كل أحد، ويخوض فيه كل أحد! وإنك لتعجب حينما ترى رجلًا يتقحم نار الله على بصيرة، فيخوض في مسائل عظيمة من هذه

المسائل: يرد النصوص، ويجيب عن الأدلة، وكأنه عالم زمانه! دون ضوابط شرعية، ودون علم شرعي، ودون فقه عن الله ورسوله! ولربما عنده القواعد العامة ويخبط في هذه النصوص عن جهل! ويرد الأحاديث الصحيحة بالتأويلات وبالأهواء وبالآراء! وما على المسلم إذا أصبح الزمان بهذا الحال: حينما يترفع الوضعاء، ويسكت العلماء، ويتكلم الجهلاء، إلا أن يسأل الله العافية في دينه، وأن يستعيذ بالله من مضلات الفتن، وأن لا يصغي بسمعه إلى أهل الهوى، فلا يزال المؤمن بخير ما استقام سمعه للعلماء الأمناء، الذين يحفظون دين الله ولا يضيعونه، الذين هم أمناء على دين الله وشرع الله.

فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن الشيطان يضر، ولو كان المراد به الضرر العام – وهو الوسوسة –: فلا يسلم أحد من هذه الوسوسة، ويكون الحديث تحصيل حاصل! ولكنه ضرر زائد عن المعهود والمعروف، وأنه لا ينجو منه إلا من ذكر الله ﷻ، وذلك كله بفضل الله ﷻ.

أجاب بعض العلماء بجواب ثانٍ، وهو: أنه أثبت الحديث أن الشيطان لا يضره، فإذا ذكر رجل اسم الله ﷻ ووجد في ولده بلاءً: فإنه ربما كان مرضًا وراثيًّا. وقال بعض العلماء: لربما كان هذا الذي بولده بسبب أنه حينما ذكر اسم الله لم يكن حاضر القلب كما ينبغي.

فإذًا: شرط تأثير الذكر: أن يكون حاضر القلب، وإذا قال: "بسم الله" وعى ما يقول من اسم الله ﷻ. فحينئذ: اختل شرط من شروط التأثير، ولا يكون مراد الشرع مطلق الذكر، وإنما المراد: الذكر المصاحب للاعتقاد. فنسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يعصمنا من الشيطان الرجيم، وأن يعصم ذرياتنا من شياطين الإنس والجن، إنه ولي ذلك والقادر عليه.